« غويا » لادانة الحروب النابليونية . وكل من اتيحت له فرصة تامل المجموعة باكملها سحر بجمال ذلك العمل الفني . فروعة المشهد تنسينا ادانة الحرب التي يتضمنها ، نظرا لانهماكنا بخفةخطوط « غويا » وحيويتها . ما هي حالة المتامل بذلك العمل ؟ يمكنني وصف شعوري كما يلي : حالة جمود باطني ، مستمرة في بحث لا متناه عن الجمال ، دون ان ينتهي الجمود . فهذه نقطة اللاعودة بالنسبة لها ، وهي ان تخطتها اطلت على حالة من الانبهار ، وفي حدها الاقصى ، الموت .

اما الثورة ومتطلباتها فهي دائما عبارة عن اوامر عمليـــة ، وقولي ان العمـــل الفني تحريضي ، انما يعني انه في آخر المطاف يهز كل نظام قائم ، والعمل الفني الذي يتهجم **مرحليا** على بعض القيم ، ويحاربها ويقوم بتحقيرها ، يبدأ ايضا ، وبالحركة نفسها ، بارساء اسمى سلطات الثورة . قد تقولون انها سلطات الشعب ، وانها مطلقة بما ان الشعب سيد مصيره . لكن علينا تقبل تلك الفكرة القائلة بأن اية ثورة لن تنتصر على الموت . وعلى الرغم من ذلك ، فمن واجب الثورة تشجيع اضدادها : الاعمال الفنية . وذلك لان العمل الفني ـــ وهو نتاج الكفاح المنفرد الذي يخوضه الفنان ـــ يميل الى التأمل . وهذا الاخير قد يتحول ، في المدى البعيد الى هدم لكل القيم ، برجوازية أم لا ، وابدالها بشيء آخر سيشبه اكثر فأكثر ما نسميه **حرية** .

لكننا ما زلنا بعيدين عن كل هذا . فالعمل الثوري له مكانته في النضال الثوري ، لكنه عرضة لكافة انواع التبجح والرشوة ، كما هو الآن ، وكما سيظل لامد طويل ، ضمن العالم البرجوازي . الفنان متواضع . والعمل الفني سوف يصبح مجرد تجربة تواضع ، اكثر فأكثر . انا لا اقول غباء ـــ بل تواضع . بينما هو حاليا ، أكان ذلك في العالم البرجوازي أم ضمن الثورة ، أداة سلطة . اما العمل الحرفي ، فيمكنه رد الذي يمارسه الى مواقف اكثر واكثر رجعية . فلناخذ مثلا صناعة الفخـــار بما انهـــا وسيلة للعيش بالنسبة لعدد كبير من العائلات في بعض البلاد العربية ـــ وكونها كذلك هو سبب كاف يدفعنا الى المحافظة عليها ، لان الحاجة الاولى لاي كائن هو البقاء ، أي العيش . ان الحرفي مضطر ، كي يلبي طلبات زبائنه الذين يمرون به مرور طريق ، ان يعيد ، الى ما لا نهاية ، صنع الشكل ذاته للاواني التي يريد بيعها ، وهو الشكل الذي كان موجودا منذ الفي او ثلاثة آلاف سنة ، والذي يخاله السواح مرتبطا بشكل او بآخر ، بالبلد او بالمنظر . وسيعيد الخزفي صنع تلك الاشكال عشرة آلاف أو عشرين الف مرة . واذا اراد حقا ان يبيعها ، فتلك الاواني يجب ان تطابق تماما الفكرة التي تكونت عنها في ذهن السائح . وابسط خطأ كاف لجعل الاناء فاشلا يستحيل بيعه .

اما اذا حوّر بيكاسو شكل أي اناء ، فسيكسب ذلك الاناء قيمة بقدر ابتعاده عن الشكل القديم الاكاديمي . وكلما وضع بيكاسو من ذاته في الاناء ، ومن حريته الذاتية ، اي كلما كان الاناء تعبيرا عن حريته وشخصيته هو ، كان جميلا ، ومباغـــا . لكن اقل هفوة تتعرض لها الطينة الرطبة بين يدي الحرفي تعتبر خطأ . ولا يمكن للحرفي ان يواصل العمل في ذلك الخطأ ، او ان يدخل حريته في صنع الاناء عبر ذلك « الخطأ » . فالاناء لا يجب أن يحوي قدر ذرة من شخصية الحرفي .

ان العمل الفني ـــ ونتكلم هنا عن الفن البرجوازي او الذي تقبله البرجوازية ـــ يترك أوسع مجال للعوامل الذاتية لدى المرء . ولئن كان من الممكن ان تثير تلك العوامل الذاتية عواطف الناظر ، فمن المشكوك فيه أن تكون سلاحا ثوريا . اما اذا ابتعد الفنان عن عوامله الذاتية ـــ رافضا كل ما هو عاطفة وشعور ـــ فقد يكسب ابعادا جديدة : ذلك التطلع الى الموت مثلا الذي سبق وتكلمت عنه ، والذي هو بمثابة دعوة الـــى التأصل لا الى النضال . واخيرا ، ربما كان احدى تعريفات العمل الفني : انه شيء لا يفي بأية حاجة .